قوائم المحتويات متاحة على المجلات الاكاديمية العراقية
مجلة البحوث والدراسات الاسلامية
الصفحة الرئيسية للمجلة: https: //djisrs.dws.gov.iq

الاستهلال ودوره في تحقيق دلالة الخطاب اللغوي

The Opening and Its Role in Achieving the Meaning of Linguistic Discourse

م.د. زهير طاهر شنيتر كاظم*
ديوان الوقف السني

Keywords

The impact of the opening -The art of the opening,The purposes of the opening

Abstract

The introduction is one of the most important elements of literary work and linguistic discourse, and a creative semantic value; it is a necessary threshold in the construction of the text, and a kind of craft presented by masters of language and rhetoric, critics of poetry and literature, and experts in words. With it, the linguistic discourse is opened and the reading image becomes clear to the recipient. Therefore, it requires great knowledge and awareness on the part of the speaker and the creator, because the speaker points with the symbols of words to the intentions that the recipient perceives by deciphering their codes and clarifying their meaning and intentions so that their suggestive dimension is completed in the recipient. The opening is a threshold charged with semantic intentions. If the poet, whether speaker or writer, combines a good beginning with a skillful opening, and excels in eloquence and clarity, then he is among the masters of this field. The importance of this topic becomes apparent when we consider its role and impact on linguistic discourse. Its role is not limited to the semantic and aesthetic aspects, but extends to achieving pragmatic functions, such as engaging the audience, defining the scope of reception, and controlling the rhythm of the text. The precise selection of opening words and structures contributes to the construction of meaning and influences its interpretation, which makes its study essential for understanding the mechanisms of Arabic discourse in its semantic and communicative dimensions. Hence, the opening is considered a key. Interpretively, it contributes to defining the horizon of reasoning and the accurate understanding of the intended meaning. Therefore, the research seeks to highlight the role of the opening and the skill in it and its impact on contemporary linguistic studies, and to deepen communicative awareness of the linguistic mechanisms on which the Arab heritage is based and its superiority over others in achieving meaning, eloquence and clarity.

* Corresponding author Instructor. Zuhair Taher Shneetir Kadhim
zuhertaher2@gmail.com

معلومات المقال

تاريخ المقال:
الإرسال:
المراجعة:
القبول: ٢٠٢٦/٦/١م
الكلمات المفتاحية:
براعة الاستهلال – أثر الاستهلال – مقاصد الاستهلال

ملخص

الاستهلال يعد من أهم عناصر العمل الأدبي والخطاب اللغوي، وقيمة دلالية إبداعية؛ فهو عتبة ضرورية في بناء النص، وضرب من ضروب الصنّعة التي يقدمها أمراء اللغة والبيان، ونقاد الشعر والأدب، وجهابذة الألفاظ، به يُفتتح الخطاب اللغوي وتتضح الصورة القرائية عند المتلقي، لذا يتطلب دراية ووعيًا كبيرين من قبل المتكلم والمُنشئ، لأن المتكلم يُشير برموز الألفاظ الى المقاصد التي يستشفها المتلقي عن طريق فك شفراتها وتوضيح معناها ومقاصدها ليكتمل بُعدها الإيحائي عند المتلقي. فالاستهلال عتبة مشحونة بالمقاصد الدلالية، فإذا جمع الناظم متحدثًا كان أم كاتبًا بين حسن الابتداء وبراعة الاستهلال "وأبلغ وأبان" كان من فرسان هذا الميدان. وتأتي أهمية هذا الموضوع حين ننظر إليه من زاوية دوره وأثره في الخطاب اللغوي؛ إذ لا يقتصر دوره على الجانب الدلالي والجمالي، بل يتعداه إلى تحقيق وظائف تداولية، كاستمالة المخاطَب، وتحديد أفق التلقي وضبط إيقاع النص. ذلك أن الاختيار الدقيق لألفاظ الاستهلال وتراكيبه يسهم في بناء الدلالة ويؤثر في تأويلها، وهو ما يجعل دراسته ضرورةً لفهم آليات الخطاب العربي في أبعاده الدلالية والتواصلية. ومن هنا فإن الاستهلال يُعدّ مفتاحًا تأويليًا يُسهم في تحديد أفق الاستدلال والفهم الدقيق للمعنى المراد. لذا يسعى البحث لإبراز دور الاستهلال والبراعة فيه وأثر ذلك في الدراسات اللغوية المعاصرة، وتعميق الوعي التواصلي بالآليات اللغة التي يقوم عليها التراث العربي ورقيه على غيره في بلوغ الدلالة والفصاحة والبيان.

١. المقدمة

تُعَدُّ براعةُ الاستهلال من القضايا المركزية في اللغة العربة، لما تمثّله من منزلةٍ متقدمةٍ في بناء الخطاب وتوجيهه نحو الفهم واستيعاب المقاصد. فالابتداء ليس عنصرًا شكليًا يُستفتح به الكلام فحسب، بل هو مفتاحٌ دلاليٌّ يكشف عن مكنونات الخطاب، ويؤسس لعلاقةٍ تفاعليةٍ بين المتكلم والسامع أو القارئ، إذ يحرص المتكلم على صياغة مطلعٍ يجمع بين الإيجاز والإيحاء. وقد تبلورت براعة الاستهلال في النصوص العربية بمختلف أنماطها، من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف إلى الخطب والرسائل والشعر، إذ يتجلى فيها عميقٌ اللغة العربية وقدرتها على الإيحاء والتأثير. فالخطيب أو الكاتب المتمكن يحرص على أن يكون استهلاله مشتملاً على عناصر "التشويق، والتنبيه، والإقناع" فيمهّد للموضوع ويُشعر المتلقي بأهميته، ويستميله لمتابعة الخطاب؛ فالاستهلال يمثل نقطة الارتكاز في البناء النصي الذي تتفرع عنه بقية عناصر الخطاب وتستمد منه انسجامها وتماسكها. وللاستهلال وظيفتين أساسيتين هما (جلب انتباه المُخاطب، والتلميح بأيسر الكلام إلى مضمون النص وغايته). وبراعة الاستهلال ضرب من ضروب الصنعة يقدمها أمراء البيان، ونقاد الشعر والأدب، وجهابذة الألفاظ، يُقال برع الرجل، أي: فاق أَصْحَابه؛ وهو أن يبدأ المتكلم بمعنى ما يريد تكميله. **وتزداد أهمية هذا الفن حين ننظر إليه من زاوية دوره وأثره في الخطاب اللغوي؛** إذ لا يقتصر دوره على الجانب الدلالي والجمالي، بل يتعداه إلى تحقيق وظائف تداولية، كاستمالة المخاطَب، وتحديد أفق التلقي وضبط إيقاع النص. **ذلك أن الاختيار الدقيق لألفاظ الاستهلال وتراكيبه يسهم في بناء الدلالة ويؤثر في تأويلها، وهو ما يجعل دراسته ضرورةً لفهم آليات**

الخطاب العربي في أبعاده الدلالية والتواصلية. ومن هنا فإن الاستهلال يُعدّ مفتاحًا تأويليًا يُسهم في تحديد أفق الاستدلال والفهم الدقيق للمعنى المراد.

وانطلاقًا من أهمية الاستهلال في الخطاب اللغوي، يأتي هذا البحث الموسوم بـ(براعة الاستهلال ودورها في تحقيق دلالة الخطاب اللغوي في اللغة العربية)؛ ليدرس هذا الفن العريق والمؤثر دلاليًا من منظورٍ تحليليٍّ يجمع بين التأصيل النظري والتطبيق النصي. **ولقد سعى البحث لبيان مفهوم الاستهلال وأبعاده، ودوره وأثره في الخطاب اللغوي، وكيف نظرت اللغة العربية الى الاستهلال والبراعة فيه.** وقد اختار البحث لذلك نماذج من التراث الإسلامي والعربي، من "سورة الفاتحة، وخُطبة حِجة الوداع للنبي محمدﷺ، وبعض الأشعار". لإبراز أثر الاستهلال في توجيه المعنى وتعزيز فاعلية الخطاب اللغوي المؤثر. كما يسعى البحث لبيان العلاقة التفاعلية بين الاستهلال وبنية النص الكلية وانسجامها، بما يسهم في إثراء الدراسات اللغوية المعاصرة، وتعميق الوعي التواصلي بالآليات اللغة التي يقوم عليها التراث العربي في بلوغ الدلالة والفصاحة والبيان.

٢.المبحث الأول: أثر الاستهلال وأبعاده

٢.١.المطلب الأول: مفهومه الاستهلال

الاستهلال ويُسمى الديباجة: وهو مدخل الخطاب اللغوي الذي يحدد السياق، ويعطي بعض التفاصيل حول خلفية الخطاب وأغراضه، فهو ذو أهمية كُبرى في كل مقامات الخطاب اللغوي البليغ، إذ يُعطي الاستهلال تصورًا مُسبقًا عن جوهر الخطاب اللغوي وأحداثه التي سيدور حولها.

وقد جاء في معاجم اللغة العربية عن معاني الاستهلال، أن الهِلال: "غُرَّةُ الْقَمَرِ حِين يُهِلُّه النَّاس فِي أول الشَّهْر، تَقول: أُهِلَّ القَمَرُ، وَلَا يُقَال: أُهِلَّ الهلالُ"[١]. و(الْهِلَالُ) أَوَّلُ لَيْلَةٍ وَالثَّانِيَةُ وَالثَّالِثَةُ ثُمَّ يكون قَمَرا، وَ(تَهَلَّلَ) السَّحَابُ بِبَرْقِهِ تَلَأْلَأَ، وَتَهَلَّلَ وَجْهُ الرَّجُلِ مِنْ فَرَحِهِ، وَ(تَهَلَّلَتْ) دُمُوعُهُ سَالَتْ، وَ(انْهَلَّتِ) السَّمَاءُ صَبَّتْ، وَ(انْهَلَّ) الْمَطَرُ (انْهِلَالًا) سَالَ بِشِدَّةٍ، وَ(اسْتَهَلَّ) الصَّبِيُّ، صَاحَ عِنْدَ الْوِلَادَةِ[٢]. وفي اصطلاح العلماء الاستهلال: هو المطلع وأول ما يُبتدأ به الكلام، وأول ما يقرع آذان السامعين، فإن اكتسى بحسن الألفاظ تنشرح له الصدور وتهتز له الأنفس، وتشعر ببهجته فتشتاق لما بعده وتنساق إلى الإصغاء إليه طواعية واختيارًا، ولاسيما إذا كان الافتتاح مصورًا لجو الخطاب مترجمًا عنه، وقد أحسن من يلقيه بما فيه من روعة وبراعة في الاستهلال[٣].

وأما (براعة الاستهلال) فتبرز عند مشاكلة اللفظان أو المزاوجة بينهما، فالاستهلال لغة: هو الابتداء. والبراعة فيه لغة: هي كمال الفضل.

فبراعة الاستهلال: ضرب من ضروب الصنّعة التي يقدمها أمراء البيان، ونقاد الشعر والأدب، وجهابذة الألفاظ، يُقال برع الرجل، أي: فاق أَصْحَابه. وهو بأن يبدأ المتكلم بمعنى ما يريد تكميله، وإن وقع في أثناء الكلام، وقد ذكر ابن المعتز فنًا في محاسن الكلام سماه (حُسن الابتداءات)، وأراد بهذه التسمية ابتداءات القصائد إذ ينبغي للشاعر إذا ابتدأ قصيدة ابتدأها بما يدل على غرضه فيها. وكذلك ينبغي للخطيب إذا ارتجل خطبة، والبليغ إذا افتتح رسالة، أن يكون ابتداء كلامه دالًا على انتهائه[٤]. وبراعة الاستهلال علمٌ واسعٌ

---

(١) تهذيب اللغة: للأزهري، ج٥/٢٣٩.

(٢) مختار الصحاح، ص٣٢٧.

(٣) فن الإلقاء: طه عبد الفتاح مقلد، ص٢٠٩.

(٤) موسوعة المفاهيم الإسلامية العامة: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية – مصر، ص٧٦.

يدخل في كل المقامات والمكاتبات، وقد يقع مع الابتداء بالتحميد، وقد يقع مع الابتداء بالدعاء، وتكون براعة الاستهلال في الدعاء المعطوف على المبتدأ به، بأن يكون الدّعاء مناسبا للحالة المكتوب فيها. قال ابن أبي الإصبع قال: "براعة الاستهلال هي ابتداء المتكلم بمعنى ما يريد تكميله"(١). وبراعة الاستهلال تكونُ بالبدء بما يكون فيه إلماحٌ إلى المقصود الأول من النّص الأدبي، وإبداعٌ يَجْذبُ الانتباه، ويأسِرُ المتلقِّي سامعاً أو قارئاً، مع حُسْنِ السَبْك، وعذوبة اللفظ، وصحَّةِ المعنى، ومن البديع في البدء ذكْرُ مُجْمل الموضوع أو مجمل القصة قبل التفصيل ومنه إجمال قصة أهل الكهف قبل تفصيلها في سورة الكهف(٢). قال ابن حجّة الحموي: «بَرَاعَةُ الِاسْتِهْلَالِ فَرَّعَهَا الْمُتَأَخِّرُوْنَ مِنْ حُسْنِ الِابْتِدَاءِ، وَبَيْنَهُمَا فَرْقٌ دَقِيْقٌ: – فَإِنَّهُمْ شَرَطُوا فِي حُسْنِ الِابْتِدَاءِ: رِقَّةَ اللَّفْظِ، وَالسُّهُوْلَةَ، وَالِانْسِجَامَ، وَوُضُوْحَ الْمَعْنَى، وَطَرَبَ التَّشْبِيْب، وَاجْتِنَابَ الْحَشْو، وَتَنَاسُبَ الْقِسْمَيْنِ؛ بِحَيْثُ لَا يَكُوْنُ الشَّطْرُ الْأَوَّلُ أَجْنَبِيّاً مِنَ الثَّانِي، وَشَرَطُوا أَنْ يَكُوْنَ الْمَطْلَعُ مُتَعَلِّقاً بِمَا بَعْدَهُ.

– وَبَرَاعَةُ الِاسْتِهْلَالِ كَذَلِكَ؛ إِلَّا أَنْ يَكُوْنَ دَقِيْقَ الْفَرْقِ بَيْنَهُمَا كبيرٌ، الدَّلالةُ على مَا بُنِيَتِ الْقَصِيْدَةُ عَلَيْهِ، مِنْ غَرَضِ النَّاظِمِ. فَإِنْ جَمَعَ الشَّاعِرُ فِي مَطْلَعٍ بَيْنَ بَرَاعَةِ الِاسْتِهْلَالِ وَحُسْنِ الِابْتِدَاءِ كَانَ مِنَ الفُحُوْلِ الَّتِي أَحْرَزَتْ قَصَبَاتِ السَّبْقِ(٣). وقد اشتملت آيات القرآن الكريم على براعة الاستهلال إذ اشتمل أول الكلام فيه على ما يناسب الحال المتكلم، ويشير إلى ما سبق الكلام لأجله فإنها اشتملت على الأمر بالقراءة كما في سورة اقرأ والبداءة فيها ببسم الله، إلى غير ذلك مما ذُكر، ثم قيل إنها جديرة أن تسمى عنوان القرآن، لأن عنوان الكتاب ما يجمع مقاصده بعبارة موجزة في أوله، وقد كرر جبريل الغط ثلاثا للمبالغة. وأخذ منه بعض التابعين وهو القاضي شُريح أن المعلم لا يضرب الصبي على تعليم القرآن أكثر من ثلاث ضربات(٤). وقد فرَّع المتأخرون على حسن الابتداء "براعة الاستهلال"، بأن يكون أول الكلام دالاً على ما يناسب حال المتكلم، متضمناً لما سيق الكلام لأجله من غير تصريح بل بألطف إشارة يدركها الذوق السليم. وقد أشار إلى هذا المعنى ابن المقفع، على ما نقل عنه أبو عثمان الجاحظ، في كتاب البيان والتبيين، في كلام له في تفسير البلاغة إذ قال: ليكن في صدر كلامك دليل على حاجتك. كما أن خير أبيات الشعر: البيت الذي إذا سمعت صدره عرفت قافيته. وذكر الجاحظ أنه ثمة فرق بين صدر خطبة النكاح وخطبة العيد وخطبة الصلح، حتى يكون لكل فن من ذلك صدر يدل على عجزه، فإنه لا خير في كلام لا يدل على معناك، ويشير إلى مغزاك، وإلى العمود الذي إليه قصدت، والغرض الذي إليه نزعت. قالوا: والعلم الأسنى في ذلك، سورة الفاتحة، التي هي مطلع القرآن فإنها مشتملة على جميع مقاصده. كما قال البيهقي في شعب الإيمان: عن الحسن البصري قال: أنزل الله مائة وأربعة كتب، أودع علومها أربعة منها: (التوراة والإنجيل والزبور والفرقان)، ثم أودع علوم المفصل الأربعة في القرآن، ثم أودع علوم القرآن في المفصل، ثم أودع علوم المفصل فاتحة الكتاب، فمن علم تفسيرها كان كمن علم تفسير جميع الكتب المنزلة(٥). فالاستهلال يُعد من أهم عناصر العمل الأدبي والخطاب اللغوي،

(١) خزانة الأدب وغاية الأرب: ابن حجة الحموي، ج٣١/١.
(٢) البلاغة العربية: عبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة، ج٥٥٩/٢.
(٣) درر الفرائد المستحسنة في شرح منظومة ابن الشحنة: ص٤٧٩.
(٤) أنوار الربيع في أنواع البديع: ص٥.
(٥) أنوار الربيع في أنواع البديع: ص٥.

فمن غيره لا يمكن الوقوف على خصائص هذا العمل وقيمه البلاغية؛ فهو "عتبة ضرورية في بناء النص الأدبي، فبه يفتتح التشكيل السردي أو القصصي، وهو يعدّ طريقا للولوج إلى متن النص، ويتطلب دراية ووعيا كبيرين من قبل الكاتب أو المتحدث؛ لأن المضمون الذي قام باختزاله في بضع كلمات يحوي مرجعيات متعددة يستشفها المتلقي عن طريق فك شيفراتها وتوضيح معناها ليكتمل بُعدها الإيحائي رؤيتها القرائية، وعليه يمكن القول بأن الاستهلال عتبة قرائية نصية مشحونة بالمقاصد الدلالية. وإنَّ للاستهلال وظيفتين مهمتين: **(جلب انتباه المتلقي، والتلميح بأيسر الكلام إلى مضمون النص وغايته)**، وقد ذكر كثير من البلاغيين هاتين الوظيفتين أو الفائدتين. إذن فالاستهلال هو أحد أهم المفردات الأساسية في بنية العمل الأدبي، وهو الذي حمل تصورات الحداثة وآفاقها. قال أهل البيان: من البلاغة حسن الابتداء؛ وهو أن يتأنق في أول الكلام؛ لأنه أول ما يقرع السمع، فإن كان محررًا أقبل السامع على الكلام ووعاه، وإلا أعرض عنه، ولو كان الباقي في نهاية الحسن، فينبغي أن يؤتى فيه بأعذب اللفظ وأجزله وأرقه وأسلسه وأحسنه نظمًا وسبكًا، وأصحه معنى، وأوضحه وأخلاه من التعقيد، والتقديم، والتأخير الملبس، أو الذي لا يناسب. قالوا: وقد أتت جميع فواتح السور على أحسن الوجوه وأبلغها وأكملها، كالتحميدات وحروف الهجاء والنداء، وغير ذلك[١].

٢.٢.المطلب الثاني: دور الاستهلال وأثره في النص

أ)- أثر الاستهلال ومقاصده

إنَّ أثر الاستهلال هو "المُحصلة والناتج" لما برع به الأديب من بلوغ الخطاب غاياته ومقاصده الدلالية وقطف ثماره، بوصول رسائل الخطاب غايتها وحصول الاستجابة في عملية الابلاغ بين المتكلم والسامع أو بين القارئ والكاتب بطريقة تدل على التفاعل والتناغم، وذلك من خلال الإجادة في عرض أجزاء الخطاب (استهلالًا وعرضًا وخاتمة). وقد ذكر أرسطو أنه يحسن في صدر الخطب الإشارة إلى الغرض المقصود، وذكر أن للكلام الخطابي (صدرًا واقتصاصًا وخاتمة)، وذكر ابن المقفع أنه يجب أن يكون في صدر كلامك دليل على حاجتك، وشرح ذلك الجاحظ شرحًا وافيًا يدل على بلاغة هذا اللون؛ ولكن ابن المعتز هو الذي سبق إلى هذه التسمية، وأفاض في ذكر شواهد هذا الباب مما احتذاه فيه أبو هلال وسواه، وبهذا تنتهي ألوان البديع ومحاسن الشعر الى "ابن المعتز" التي ضمنها كتابه "البديع"[٢]. وأثر الاستهلال هو الإمساك بشيء من زمام الدلالة وحسن البيان في القول والحكمة في العمل، قال الرماني: البلاغة ما حطّ التكلف عنه، وبُنى على التبيين، وكانت الفائدة أغلب عليه من القافية، بأن جمع مع ذلك سهولة المخرج، مع قرب المتناول؛ وعذوبة اللفظ، مع رشاقة المعنى؛ وأن يكون حسن الابتداء كحسن الانتهاء، وحُسن الوصل، كحُسن القطع، في المعنى والسمع، وكانت كلّ كلمة قد وقعت في حقّها، وإلى جنب أختها، حتى لا يكون فيه لفظ مختلف، ولا معنى مستكره؛ ثم ألبس بها ثوب الحكمة، ونور المعرفة، وشرف المعنى، وجزالة اللّفظ، وكانت حلاوته في الصدر وجلالته في النفس تفتّق الفهم، وتنثر دقائق الحِكم، وكان ظاهر النفع، شريف القصد، معتدل الوزن، جميل المذهب، كريم المطلب،

(١) الزيادة والإحسان في علوم القرآن: محمد بن أحمد بن سعيد الحنفي، ج٢٨٢/٦.

(٢) المصدر نفسه، ص٤٣.

فصيحًا في معناه، بيّنا في فحواه؛ وكلّ هذه الشروط قد حواها القرآن الكريم، ولذلك عجز عن معارضته جميع الأنام[١]. ويمتد أثر الاستهلال الى كل أجزاء النص أو الخطاب فيأثر عليهما سلبًا وايجابًا. وقد بين الخفاجي في تحقيقه لـ "كتاب الإيضاح" أن المقدمة ليست من قبيل مقاصد علم البلاغة وتوابعها، بل هي تمهيد لذلك. والفنون الثلاثة: [المعاني والبيان والبديع] هي من مقاصد الدلالة والبلاغة، إلا أن موضوع كل فن من "المعاني والبيان والبديع" يختلف عن موضوع الآخر، فموضوع الفن الأول الاحتراز عن الخطأ في تأدية المعنى المراد، وموضوع الفن الثاني الاحتراز عن التعقيد المعنوي، وموضوع الفن الثالث البديع، ليس الاحتراز عن شيء أصلًا، بل مجرد تحسين اللفظ وتزيينه. والخاتمة تشمل الكلام علي (حسن الابتداء والتخلص وحسن الخاتمة)، فهي من الفن الثالث أو متصلة به بصلة كبيرة. والمقدمة هنا تأتي لبيان معنى شيئين: **الأول** معنى الفصاحة وبلوغ الدلالة، **والثاني** انحصار علم البلاغة في علمي المعاني والبيان، وكل ذلك مما يرتبط بالمقصود من الكتاب وايصال رسائله[٢]. ولحصول أثر الاستهلال كذلك اتفق علماء البديع، على أن براعة المطلع عبارة عن طلوع أهلة المعاني واضحة في استهلالها، وأن لا يتجافى بجنوب الألفاظ عن مضاجع الرقة، وأن يكون التشبيب بنسبها مرقصا عند السماع، وطرق السهولة متكفلة لها بالسلامة من تجشم الحزن ومطلعها، مع اجتناب الحشو، ليس له تعلق بما بعده. وشرطوا أن يجتهد الناظم في تناسب قسميه، بحيث لا يكون شطره الأول أجنبيا من شطره الثاني[٣]. وكذلك لحصول أثر الاستهلال قالوا ينبغي للمتكلّم أن يتأنّق في ثلاثة مواضع من كلامه حتى يكون أعذب لفظا وأحسن سبكا وأصح معنى. أحدها: الابتداء لأنّه أول ما يقرع السّمع، فإن كان محررًا أقبل السامع على الكلام وإلّا أعرض عنه. ولو كان الباقي في نهاية الحسن فينبغي أن يؤتى فيه بأعذب اللفظ وأجزله وأحسنه نظامًا وسبكًا وأصحه معنى، ويسمّى حسن الابتداء وأحسنه ما ناسب المقصود ويسمّى براعة الاستهلال.

وثانيها: التخلّص وهو الانتقال مما افتتح به الكلام إلى المقصود مع رعاية المناسبة. وأحسنه أن يكون الانتقال على وجه سهل يختلسه اختلاسا دقيق المعنى، بحيث لا يشعر السّامع بالانتقال من المعنى الأول إلّا وقد وقع الثاني لشدّة الالتئام بينهما ويجيء في محله.

وثالثها: الانتهاء فيجب أن يختم كلامه شعرًا كان أو خطبة أو رسالة بأحسن خاتمة حتى لا يبقى معه للنفس تشوق إلى ما يذكر بعد. وقد قلّت عناية المتقدمين بهذا النوع. والمتأخرون يجهدون في رعايته ويسمّونه حسن المقطع وبراعة المقطع[٤].

وهذه الأركان الثلاثة (حُسْن الابتداء، والتَّخَلُّصُ، والخِتَامُ) إنما خُصَّت بالبحث لأنَّ الإجادةَ فيها أعسر؛ إذ الابتداء هو أول ما يَقْرَع السمع، وأول ما يبتدئ به المتكلم، وهو مفتاح الكلام، فإن كان متقنًا أعان على التخلُّص من المقدمة إلى الغرض؛ لأن ذلك يحتاج إلى

(١) زهر الآداب وثمر الألباب: إبراهيم بن علي بن تميم الأنصاري، أبو إسحاق الحُصري القيرواني (ت ٤٥٣هـ)، ج١/١٤١.

(٢) الإيضاح في علوم البلاغة: جلال الدين القزويني، المعروف بخطيب دمشق (ت ٧٣٩هـ)، المحقق: محمد عبد المنعم خفاجي، ج١/١٧.

(٣) خزانة الأدب وغاية الأرب: ابن حجة الحموي (ت٨٣٧هـ)، ج١/١٩.

(٤) موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم: محمد بن علي ابن القاضي، ج١/٦٧٠ .

فضلِ براعةٍ في الارتباط بينهما، وكذلك الختام؛ ولا جرم أن يكون ما يتخلَّلُ بين هذه الثلاثة رشيقًا بليغًا متى سَهُلت على المتكلم الإجادة في هذه الثلاثة، وهذا هو المراد من التأنُّق الذي حَرَّض عليه أئمة البلاغة في هذه المواضع الثلاثة(١). ويرى السيوطي أن براعة الاستهلال أخص من حسن الابتداء، لأن البراعة لابد فيها من الإشارة إلى ما سيق الكلام لأجله، بخلاف حسن الابتداء فلا يشترط فيه ذلك. غير أن الخطيب القزويني لا يرى فرقا بين حسن الابتداء وبراعة الاستهلال، فكلاهما شيء واحد، وبأيهما سميت كنت مصيبًا، فأحسن الابتداءات ما ناسب المقصود، ويسمى براعة الاستهلال(٢).

ب)- حُسن الخاتمة وعلاقتها بالاستهلال

الاستهلال لا تقف حدوده عند غرض النص أو متْنه بل يتعدى ذلك ليشمل الخاتمة... ولقد اهتمت العربية اهتماما كبيرًا بدراسة الخاتمة، وعدتها مبحثا بديعا مهما لا بد من التأنق فيه؛ لأنها آخر شيء يبقى عالقا بالأسماع، وقد تحفظ أكثر من أي جزء آخر في النص، وهي أيضا تعد من أهم المواضع النقدية في ضبط مفاصل النص. ولا شك أن الخاتمة هي أخطر لحظة في سير العمل الأدبي والخطاب اللغوي؛ لكونها آخر ما يستقر في ذهن القارئ والمتلقي، وهي تمثل الجزء الأساسي في كل عمل أدبي، إذ من خلالها تتحدد الدلالات والمعنى العام. إنَّ حسن الابتداء يُبنى عليه حُسن الختام! لأن دلالات الخطاب تستدعي أن يكون الكلام بارع المطلع، أي: لمبدئه روعة تستهوي القلب وتجذب اللب، وتستخف السمع، وذلك بأن يكون عذب اللفظ، حسن السبك، صحيح المعنى؛ لأن الكلام المبتدأ به أول ما يقرع السمع، أو يقع عليه النظر، فإذا كان على هذه الصفات المذكورة وقع من قلب السامع أو القارئ موقعه من الحسن، فأقبل عليه واهتم له، ووعاه إلى نهايته وإن لم يكن لباقيه من الجودة ما لأوله. ولم يكن مستهل الكلام على ما ذكرنا صدفت عنه النفس ونفرت، وإن كان باقيه رائع الحسن(٣). وللخاتمة روعة تهتز لها النفس، ويطرب لها السمع؛ ذلك أن ختام الكلام هو آخر ما تعيه الأذن، ويرتسم في الخيال، فإن كان حسنًا هفت إليه النفس، واستلذه السمع، وقد يكون جابرًا لما عساه قد وقع من نقص أو تقصير، فإن لم يكن الانتهاء حسنًا رائعًا كان الأمر على العكس من صدوف النفس ونفورها، واستكراه السمع ومجه، وقد ينسي ذلك ما تقدم من محاسن الكلام، فيعود السامع أو القارئ على مجموعه بالذم وإن كان حسنًا(٤). وقد ذكر بعضهم أنه ينبغي للمتكلم أن يتأنق فيما يورده من كلامه في أربعة مواضع، أولها: المطلع، لأنه أول ما يقرع الآذان ويصافح الأذهان، فإن كان حسناً جامعاً للشروط التي ذكروها في حسن الابتداء، أقبل السامع على الكلام فوعي جميعه، وإن كانت حالة عن الضد من ذلك، مجَّه السمع، وزجّه القلب ونبتْ عنه النفس، وإن كان الباقي في غاية الحسن. والموضع الثاني: المخلص. والثالث: حسن الطلب. والرابع: الختام(٥).

٣.المبحث الثاني: نماذج من الاستهلال في الخطاب اللغوي

(١) أصول الإنشاء والخطابة: محمد الطاهر ابن عاشور، ص١٠٤.

(٢) موسوعة المفاهيم الإسلامية العامة: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية – مصر، ص٧٦.

(٣) المنهاج الواضح للبلاغة: حامد عونى، ج١/١٧٦.

(٤) يُنظر: نفس المصدر، ج١/١٧٧.

(٥) أنوار الربيع في أنواع البديع: صدر الدين المدني، ص٣.

١.٣.المطلب الأول: براعة الاستهلال في سورة الفاتحة

الابتداء بالكلام فن من الفنون العبقرية المعبّرة عن أدب المتكلّم، ومدى ثقافته وحسن ذوقه، ومنها يتعرّف على شخصيّته. والبدء ينتظم نوعين كلّ منهما يتميز عن الآخر، فالنوع الأول: «حسن الابتداء» وهو أن يتأنق في أول الكلام، فإن كان محرّرا، أقبل السامع على الكلام ووعاه، وإلّا أعرض عنه، ولو كان الباقي في غاية الحسن. والنوع الثاني: «براعة الاستهلال» وهذا النوع أخص من الأول، إذ أنه يشتمل على ما يناسب المقام وحال المُخاطب، ويشير إلى ما سيق الكلام لأجله. والعلم الأسنى في هذا الفنّ "سورة فاتحة" التي هي مطلع القرآن، وجديرة أن تسمّى بـ(عنوان القرآن). لأن عنوان الكتاب يجمع مقاصده، بعبارة وجيزة في أوّله، وسورة الفاتحة قد اشتملت على جميع مقاصده وعلومه، إذ إنّ القرآن قد حوى علوم الأديان جميعها، وأحصاها الأئمة فبلغت أربعة: (علم الأصول، وعلم العبادات، وعلم السلوك، وعلم القصص). ولهذه الأربعة إرشادات قد حوتها فاتحة الكتاب.

فعلم الأصول: هو ما يدور حول معرفة الله تعالى وصفاته. فقد أشير إليه بـ (رَبِّ الْعَالَمِينَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ). ومعرفة النبوات: بـ (صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ). ومعرفة المعاد: بـ (مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ). وعلم العبادات أشير إليه: بـ (إِيَّاكَ نَعْبُدُ). وعلم السلوك أشير إليه: بـ (وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ). وعلم القصص: وهو الاطلاع على أخبار الأمم السالفة، والقرون الماضية، ليتعرف المطلع على سعادة من أطاع، وشقاوة من عصى، وأشير إليه بـ(صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ). وبهذا تكون الفاتحة قد أشارت إلى جميع مقاصد القرآن الكريم، وهو الغاية في براعة الاستهلال، فضلا عما اشتملت عليه من الألفاظ الحسنة والمقاطع المستحسنة وبلوغ أنواع الدلالات[١].

٢.٣.المطلب الثاني: براعة الاستهلال في خُطبة حِجة الوداع للنبي محمد ﷺ

وكذلك ورد حُسن الاستهلال والبراعة فيه في السنة النبوية المطهرة في مواضع ومواطن كثيرة منها في حُجة الوداع، التي لا زال صداها يقرع الأسماع ويستهوي الأفئدة ويأسر القلوب، بما حملته من الدلالات والمعاني الإعلامية والاصلاحية، فنلاحظ فيها حسن الابتداء وبراعة الاستهلال لتهيئة المتلقي لقبول الفكرة، إذ أن من بلاغة القول ودلالته التألق في المدخل المثير للانتباه وجعله نابضًا بالحركة والحياة، حتى يصل المعنى إلى قلب السامع في أحسن صورة وبيان، ليكون أدعى للإقناع بالأفكار في أعذب لفظ وأجزله وأرقه وأسلسه وأصحه معنى وأوضحه وأخلاه من التعقيد، وقد تميزت خطب النبي صلى الله عليه وسلم كلها حين اتصاله بالناس، بحسن الابتداء وبالأخص في خطبة الوداع، وقد استهلت في الاستفتاح بصيغة الاستفهام؛ حيث قال صلى الله عليه وسلم «أتدرون أي يوم هذا؟ وأي شهر هذا؟ وأي بلد هذا؟ قالوا: بلد حرام وشهر حرام ويوم حرام...»[٢]. وفي صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله قال خَطَبَ النبي محمد ﷺ النَّاسَ وَقَالَ: «أَيُّهَا النَّاسُ، اسْمَعُوا قَوْلِي، فَإِنِّي لَا أَدْرِي لَعَلِّي لَا أَلْقَاكُمْ بَعْدَ عَامِي هَذَا فِي مَوْقِفِي هَذَا. أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ حَرَامٌ عَلَيْكُمْ، كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِي شَهْرِكُمْ

(١) الإتقان في علوم القرآن: عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ)، ج٣/٣٦٣. وموسوعة علوم القرآن: عبد القادر محمد منصور، ص٢٦٤.

(٢) يُنظر: صحيح البخاري، ج٢/١٧٦.

هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا، أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ تَحْتَ قَدَمَيَّ مَوْضُوعٌ، وَدِمَاءُ الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعَةٌ، وَإِنَّ أَوَّلَ دَمٍ أَضَعُ مِنْ دِمَائِنَا دَمُ ابْنِ رَبِيعَةَ بْنِ الْحَارِثِ، كَانَ مُسْتَرْضِعًا فِي بَنِي سَعْدٍ فَقَتَلَتْهُ هُذَيْلٌ، وَرِبَا الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ، وَأَوَّلُ رِبًا أَضَعُ رِبَانَا رِبَا عَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، فَإِنَّهُ مَوْضُوعٌ كُلُّهُ، فَاتَّقُوا اللهَ فِي النِّسَاءِ، فَإِنَّكُمْ أَخَذْتُمُوهُنَّ بِأَمَانِ اللهِ، وَاسْتَحْلَلْتُمْ فُرُوجَهُنَّ بِكَلِمَةِ اللهِ ، وَلَكُمْ عَلَيْهِنَّ أَنْ لَا يُوطِئْنَ فُرُشَكُمْ أَحَدًا تَكْرَهُونَهُ، فَإِنْ فَعَلْنَ ذَلِكَ فَاضْرِبُوهُنَّ ضَرْبًا غَيْرَ مُبَرِّحٍ، وَلَهُنَّ عَلَيْكُمْ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ، وَقَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُ إِنِ اعْتَصَمْتُمْ بِهِ، كِتَابُ اللهِ، وَأَنْتُمْ تُسْأَلُونَ عَنِّي، فَمَا أَنْتُمْ قَائِلُونَ؟» قَالُوا: نَشْهَدُ أَنَّكَ قَدْ بَلَّغْتَ وَأَدَّيْتَ وَنَصَحْتَ، فَقَالَ: بِإِصْبَعِهِ السَّبَّابَةِ، يَرْفَعُهَا إِلَى السَّمَاءِ وَيَنْكُتُهَا إِلَى النَّاسِ «اللهُمَّ، اشْهَدْ، اللهُمَّ، اشْهَدْ» ثَلَاثَ مَرَّاتٍ(١).

الاستهلال في خطبة حجة الوداع يبدأ من قول النبي ﷺ: بعد أن «حَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: أَيُّهَا النَّاسُ اسْمَعُوا قَوْلِي، فَإِنِّي لَا أَدْرِي لَعَلِّي لَا أَلْقَاكُمْ بَعْدَ عَامِي هَذَا فِي مَوْقِفِي هَذَا»، وهذا هو الاستهلال الأصلي قبل الدخول في الأحكام والتوجيهات. فنلاحظ أن اسلوب الاستهلال افتتاح بالحمد والثناء وهذا الافتتاح الشرعي ثابت في خطب النبي ﷺ. يمثل تهيئة روحية ولغوية لإدخال السامعين في أجواء القدسية والوقار ويحمل معنى إسناد الفضل لله، مما يضفي على الخطاب سلطة شرعية. والنداء العام بـ أيها الناس نداء عمومي شامل لجميع الأمة، ليس خاصًا بالصحابة الحاضرين بل موجَّه للبشر جميعًا عبر الزمن، والنداء بـ «أيها» يفيد التنبيه والتشريف والتوقير، ويُعدّ من أقوى أساليب جذب الانتباه. وبنية النداء بنية لغوية مكثفة في استجماع الانتباه وتجميع المخاطبين حول مركز الخطاب. ويُشير استعمال فعل الأمر الدلالي: اسمعوا قولي، الى معنى الإنصات الجاد، ويتضمن معنى: "الانتباه، والامتثال، وإدراك الخطر". وإضافة (قولي) تفيد اختصاص مضمون الخطاب بالنبي ﷺ، وهذا الأمر يشكل محورًا دلاليًا: للامتثال والإدراك والانتباه. ويأتي الإيحاء بقرب الوداع: "لا أدري لعلّي لا ألقاكم..."، من أقوى عناصر الاستهلال. يحمل معنى المفارقة الوجدانية. يُشعر السامعين بخطورة اللحظة التي يمرون بها وأن الكلام وصيّة أخيرة، وهذا من شأنه يرفع مستوى التلقي إلى أعلى درجات الجدية. وإن أداة التعليل (فإنّي لا أدري لعلّي لا ألقاكم)، جملة احتمال تصدر من نبي الله محمد ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى، أمرٌ في غاية الترقب والحذر، وظرف المكان (في موقفي هذا)، يشير الى أهمية الحدث والاعلان بختم الرسالة وسموّ المقصد وقرب الأجل. وإن الجانب الدلالي للاستهلال وعلاقته بالخطبة ليس مجرد افتتاح؛ بل هو بنية دلالية محكمة تؤدي وظائف متعددة داخل الخطاب. فالتمهيد الدلالي لمقام الوصية الكبرى قوله ﷺ: (لعلّي لا ألقاكم بعد عامي هذا)، وبذلك فهو يرفع الخطاب من مستوى "النصيحة" إلى مستوى "الوصيّة". ليجعل هذا التمهيد الدلالي كل ما يأتي بعدَه أحكامًا ختامية ومبادئ جامعة لمعني عظيمة ينبغي أن تُحفظ بوعي وفهم دقيق. إن من دلائل الاستهلال ومقاصده تهيئة المتلقي نفسيًا وجذب انتباهه عقلاً وفكرًا، لاستقبال التشريع والأحكام التي سيتلقاها تباعًا، وإن الاستهلال والابتداء "بالحمد والثناء والنداء والتنبيه" يستدعي القداسة والطاعة والاستحضار والإصغاء التام، وهذا يُهيئ المُخاطب والسامعين لاستقبال تحريم الدماء، وإبطال الربا، والوصية بالنساء خيرًا، وحرمة الظلم،

(١) صحيح مسلم: أبو الحسين مسلم بن الحجاج النيسابوري، ج٢/ ٨٨٩.

والوصية بكتاب الله. وإن من دلائل براعة الاستهلال تهيئة الانتقال الواعي والذكي إلى تعاليم الشريعة الكبرى، لتثبيت المقاصد المركزية والأساسية للخطبة المتمثلة في "حفظ الدماء، وحفظ الأموال، وحفظ الأعراض، وحفظ الحقوق، وإقامة العدالة، وصيانة الأسرة، والتمسك بالوحي".

وقد أشار الاستهلال إلى ذلك ضمناً وايحاءً عبر إشعار المخاطبين بخطورة اللحظة، وإثبات عمومية الخطاب، ودعوة الجميع للإنصات، وتحميلهم مسؤولية الفهم والامتثال. فالاستهلال تأسيس للمقاصد ووضع إطار دلالي شامل للخطاب وبيان لمقاصده. ولقد استطاع النبي محمد ﷺ بناء علاقة تواصلية بينه وبين الأمة في قوله: أيها الناس، اسمعوا قولي؛ وهذا يدل على بناء علاقة عمودية وأفقية في آن واحد. لأن المتكلم رسول الله الى الناس كافة، والخطاب وحي من السماء. ولأنه يخاطبهم بلغة إنسانية ووجدانية عن الوداع والقرب الأجل. وهذا من شأنه جعل الخطاب قريبًا من القلوب، عميقًا في التأثير، شاملاً لجميع الناس على اختلاف ألوانهم وأشكالهم وأجناسهم. لقد رسم الاستهلال للخطبة بنيتها الدلالية كلها، فبعد الاستهلال جاء التركيب بـ إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام... وهو أهم مقاصد الخطبة وأهدافها، فلو لم يُسبق بهذا الاستهلال المحكم، لما كان لهذا الحكم التأثير الوجداني والشرعي ذاته. فالاستهلال يفتح الباب لباقي الدلالات في الخطبة ويمنحها تماسكها وعمقها أعظم وأبلغ. وعن طريق التحليل التركيبي والبنائي لخطبة الوداع يتبين أن الاستهلال تناول أربعة محاور بنائية: "تقديس المقام بالحمد والثناء، وعمومية النداء بـ أيها الناس، والأمر بالإنصات اسمعوا قولي، والإيحاء بالوداع لعلّي لا ألقاكم...". إذن الوظيفة الدلالية الكبرى للاستهلال هي تأسيس الإطار الدلالي للخطبة بوصفها وصيّة نبوية عظيمة تُقدّم أحكامًا ختامية للأمة، يتوجب تلقيها بأعلى درجات الوعي والالتزام.

وتؤكد الدراسات الإعلامية أن هذه طريقة مهمة وناجحة في إثارة اهتمام القارئ أو السامع وهي من أساليب الخطاب القرآني، ومن المتعارف عليه عند علماء الدلالة والبيان أن هناك أمورا معينة وأحوالا خاصة إذا أجاد فيها القائم بالاتصال ببراعة الاستهلال، فقد أجاد في غرض من أغراض الاتصال، لذا عُرِفَ بعض شعراء العرب بجودة المدح، وآخرون بالهجاء..، وكانت الأسبقية لبعضهم في وصف الحروب وغيرهم في الحكمة ودقة التعبير عن المعاني العقلية والنفسية(١).

أما تسنم ذروة الفصاحة والبيان في كل صغيرة وكبيرة فقد جاء كلام المصطفى المعصوم في غاية البيان، كيف لا وهو من قال الله تعالى عنه: (وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى، إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى) [النجم: ٣ – ٤]. والمتتبع للبداية المثيرة للانتباه في خطبة الوداع البليغة، يجد الاستفتاح بجملة خبرية هزت الجمهور المتلقي وأثرت فيه أيما تأثير؛ وقد جمع الرسول صلى الله عليه وسلم في هذه البداية أسلوبين من الاستهلال هما: الاستفتاح بالنداء الشامل للناس، والاستفتاح بالجملة الخبرية المثيرة لاهتمام جماعة المسلمين، لا سيما وأنهم يحبون الرسول صلى الله عليه وسلم أكثر من أنفسهم، ومشاركة الناس همومهم والتعاطف مع قضاياهم ومشكلاتهم تعد من المداخل الهامة لجذب الاهتمام، وتحريك الوجدان، واستثارة العقول، وقد أتقن الاتصال النبوي هذا الأسلوب من الاتصال فأقنع الناس بالحق، وأتقن الإعلام المعاصر هذا المدخل فخاطب الإنسان واتصل به من خلال غرائز التملك والطموح

(١) الجوانب الإعلامية في خطب الرسول صلى الله عليه وسلم: سعيد بن علي ثابت، ص٧٣.

والمحافظة على الصحة، وظهر ما يعرف بنظرية إشباع الحاجات في الاتصال الحديث وربط هذا المدخل بمصالح دنيوية وأغراض هابطة[١].

٣.٣.المطلب الثالث: من براعة الاستهلال في الشعر

إن مما يتوجب على المتكلم أن يتجنب في بدء كلامه المواجهة بما يسوء، أو بما يُتَطَيَّر منه، أو بما يُسْتَكْرَهُ لفظُه أو معناه. فإذا لم يكُنْ في البدء إلماحٌ إلى المقصُودِ الأول الذي قد يُخَصُّ بعنوان "براعة الاستهلال" فلا أقلَّ من مراعاة الصفات الأخرى. ومن أمثلة البدايات الحسنة قولُ امرئ القيس في أوَّل معلقته:

(قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَى حَبِيبٍ ومَنْزِلِ ... بِسِقْطِ اللِّوَى بَيْنَ الدَّخُولِ فَحَوْمَلِ)

قالوا: إنّه في هذه البداية البارعة "وقَفَ واسْتَوْقَف، وبَكَى واستَبْكَى، وذكَرَ الحبيبَ ومَنْزِلَهُ" فِي مِصْراعٍ واحِدٍ [٢]. وذكر القزويني أن أحسن الابتداءات ما ناسب المقصود ويسمى براعة الاستهلال كقول أبي تمام يهنئ "المعتصم بالله" بفتح عمورية وكان أهل التنجيم زعموا أنها لا تفتح في ذلك الوقت[٣].

السيف أصدق أنباء من الكتب ** في حده الحد بين الجد واللعب

بيض الصفائح لا سود الصحائف في ** متونهن جلاء الشك والريب.

وقول النابغة الْجَعْدِي شاعر مخضرم أدرك الجاهلية والإسلام. وفَدَ مَعَ قومه على الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سنة تسع لهجرة المسلمين، وكان سيّداً فيهم، وأَنْشَدَ الرَّسُولَ صلى الله عليه وسلم شعراً فأُعْجِبَ به:

كِلِيني لِهَمٍّ يَا أُمَيْمَةُ نَاصِبِ ... ولَيْلٍ أُقَاسِيهِ بَطِيءِ الْكَوَاكِبِ[٤].

ويسمى الابتداء إن كان مناسبا للمقصود (براعة الاستهلال) من برع الرجل إذا فاق أصحابه في العلم أو غيره، وتقع في ديباجات الكتب كثيرًا. بأن يشير المصنف في ابتداء تأليفه، قبل الشروع في المسائل، بعبارة تدل على المرتب عليه إجمالًا (كقوله في التهنئة: بشرى فقد أنجز الإقبال ما وعدا ... وكوكب المجد في أفق العلا صعدا[٥].

وختامًا نحمد الله تعالى على التمام، ونستعرض أهم ما توصل إليه البحث من النتاج:

١- كشفت الدراسة أن براعة الاستهلال تمثل عنصرًا أساسًا ومحوريًا في الخطاب اللغوي، إذ إنها تسهم في تهيئة المتلقي لفهم واستيعاب مضمون الخطاب ويُكسبه قبولًا، وطابعًا جماليًا يزاوج بين حسن الصياغة وعمق الدلالة.

٢- تبيّن من تحليل سورة الفاتحة أن الاستهلال القرآني جاء محكم البناء وجامعًا بين الثناء والتوحيد والدعاء، مما يجعله نموذجًا أعلى في براعة الاستهلال وتحقيق التأثير والإقناع، وبهذا تكون الفاتحة قد أشارت إلى جميع مقاصد القرآن الكريم، فضلا عما اشتملت عليه من الألفاظ والمقاطع في بلوغ أنواع الدلالات.

٣- أظهرت الدراسة أن براعة الاستهلال في خطبة حجة الوداع للنبي ﷺ كانت في غاية الفصاحة البيان، فالبداية المثيرة للانتباه بالاستفتاح بجملة خبرية هزت الجمهور وأثرت فيه أيما تأثير؛ مما أضفى على الخطاب قوةً دينيةً وتأثيرًا وجدانيًا بالغًا، وقد أتقن

---

(١) المصدر نفسه، ص٧٤.

(٢) البلاغة العربية: عبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة، ج٢/٥٥٩.

(٣) الإيضاح في علوم البلاغة: للخطيب القزويني، ص ٣٩٢.

(٤) البلاغة العربية: عبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة، ج٢/٥٥٩.

(٥) حاشية الدسوقي على مختصر المعاني: لسعد الدين التفتازاني (المتوفى: ٧٩٢ هـ)، ج٤/٢٨٨. وكتاب التعريفات: علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني (المتوفى: ٨١٦هـ)، ج١/٤٥.

الاتصال النبوي هذا الأسلوب من الاتصال فأقنع الناس بالحق في خطبته البليغة.

٤- كشفت الدراسة أن براعة الاستهلال تؤدي وظيفة تداولية تتمثل في جذب الانتباه وبناء الثقة، وتحقيق التفاعل بين المتكلم والمتلقي لفهم مقاصد الخطاب الكبرى، وتوجيه المسار الدلالي منذ بدايته.

٥- بيّنت الدراسة أن الاستهلال الناجح والبراعة فيه بنظر العربية، يعتمد على العناصر الدلالية والبلاغية المتعددة، كالإيجاز، وحسن الافتتاح، وقوة التراكيب، والانسجام الدلالي، فيكون لذلك أثرًا واضحًا في ترسيخ المعاني واستدامة أثرها في المتلقي، مما يعزز فاعلية الخطاب اللغوي ويُعلي قيمته الدلالية ويقوي سلطته التأثيرية.

المصادر

- الإتقان في علوم القرآن: عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي، ج٣/٣٦٣.
- أصول الإنشاء والخطابة: محمد الطاهر ابن عاشور، ص١٠٤.
- أنوار الربيع في أنواع البديع: صدر الدين المدني، ص٣.
- الإيضاح في علوم البلاغة: جلال الدين القزويني، ج١/١٧.
- البلاغة العربية: عبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة، ج٢/٥٥٩.
- تهذيب اللغة: أبو منصور محمد بن أحمد الأزهري، ج٥/٢٣٩.
- الجوانب الإعلامية في خطب الرسول صلى الله عليه وسلم: سعيد بن علي ثابت، ص٧٣.
- حاشية الدسوقي على مختصر المعاني: لسعد الدين التفتازاني، ج٤/٢٨٨.
- خزانة الأدب وغاية الأرب: ابن حجة الحموي (ت٨٣٧هـ)، ج١/١٩.
- درر الفرائد المستحسنة في شرح منظومة ابن الشحنة: ص٤٧٩.
- زهر الآداب وثمر الألباب: إبراهيم بن علي الأنصاري، ج١/١٤١.
- الزيادة والإحسان في علوم القرآن: محمد بن أحمد بن سعيد الحنفي، ج٦/٢٨٢.
- صحيح البخاري: محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي، ج٢/١٧٦.
- فن الإلقاء: طه عبد الفتاح مقلد، ص٢٠٩.
- كتاب التعريفات: علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني، ج١/٤٥.
- مختار الصحاح: محمد بن أبي بكر بن عبدالقادر الرازي، ص٣٢٧.
- المنهاج الواضح للبلاغة: حامد عونى، ج١/١٧٦.
- موسوعة المفاهيم الإسلامية العامة: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ص٧٦.
- موسوعة علوم القرآن: عبد القادر محمد منصور، ص٢٦٤.
- موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم: محمد بن علي ابن القاضي، ج١/٦٧٠ .

References

.Al-Itqan fi Ulum al-Qur'an: Abd al-Rahman ibn Abi Bakr, Jalal al-Din al-Suyuti.

.Usul al-Insha' wa al-Khitabah: Muhammad al-Tahir ibn Ashur.

Anwar al-Rabi' fi Anwa' al-Badi': Sadr al-Din al-Madani..

Al-Idah fi Ulum al-Balaghah: Jalal al-Din al-Qazwini. .

Al-Balaghah al-Arabiyyah: Abd al-Rahman ibn Hasan Habanka..

.Refinement of Language: Abu Mansur Muhammad ibn Ahmad al-Azhari.

.The Media Aspects of the Prophet's Sermons (peace and blessings be upon him): Sa'id ibn Ali Thabit.

.Al-Dasuqi's Commentary on Mukhtasar al-Ma'ani: by Sa'd al-Din al-Taftazani.

.The Treasury of Literature and the Ultimate Goal: Ibn Hujjah al-Hamawi.

The Precious Pearls in Explaining Ibn al-Shahna's Poem..

.The Blossoms of Literature and the Fruits of Intellect: Ibrahim ibn Ali al-Ansari.

.Addition and Improvement in the Sciences of the Qur'an: Muhammad ibn Ahmad ibn Sa'id al-Hanafi.

.Sahih al-Bukhari: Muhammad ibn Isma'il Abu Abdullah al-Bukhari al-Ju'fi.

The Art of Eloquence: Taha Abd al-Fattah Muqallad..

.Kitab al-Ta'rifat: Ali ibn Muhammad ibn Ali al-Zayn al-Sharif al-Jurjan.

.Mukhtar al-Sihah: Muhammad ibn Abi Bakr ibn Abd al-Qadir al-Razi.

.Al-Minhaj al-Wadih lil-Balaghah: Hamid Awni.

.Encyclopedia of General Islamic Concepts: Supreme Council for Islamic Affairs.

..Encyclopedia of Qur'anic Sciences: Abd al-Qadir Muhammad Mansur

.Encyclopedia of the Dictionary of Arts and Sciences Terminology: Muhammad ibn Ali ibn al-Qadi.